


مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 189 - 202
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

# تاريخ الثقافة والحياة الاجتماعية في الصحراء الكبرى: الصحراء الجزائرية نموذجا

عاشور سرقمة
اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

**لم تحظ المناطق الصحراوية بنصيبٍ وافرٍ من الدراسات؛ التي تهتم بالإنسان وتفاعلاته المختلفة مع ما تحيط به من عناصر طبيعية وبشرية متميزة في كثير من خصائصها عن نظيراتها في المناطق المرتبطة بعوالم المدينة، ذلك أن الإنسان ابن بيئته يتفاعل معها تأثيراً وتأثراً، ويَحمل كثيراً من خصوصياتها؛ ويتجلى ذلك التأثر في عدة مظاهر ثقافية، منها ما يتعلق بمجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلد أو منطقة جغرافية محدودة، والتي تنتشر غالباً باستخدام طرق إعلام شعبية، تنتج هذه الثقافة من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع، إضافة لحاجاته ورغباته التي تشكل الحياة اليومية للقطاع الغالب من المجتمع، هذه الثقافة تتضمن أي من الممارسات وعادات الطبخ والمأكولات، والثياب والإعلام، ونواحي التسلية المستخدمة، إضافة للرياضة والأدب والطب والعمران، إضافة إلى كثير من التراث الأدبي الذي يتضمن الشعر والأمثال والأساطير وغيرها، والتي أصبحت المرتكز الأساسي الذي ينبني حوله التفكير الاجتماعي الذي ترتسم معالمه في كثير من التعابير والممارسات؛ التي لا تستغني عنها هذه المجتمعات وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً في عديد المناسبات الدينية والاجتماعية؛ وتتجلى في طقوس وممارسات تتشكل منها المعرفة الشعبية التي تتأسس عليها كثير من الحركات والسكنات والأقوال والأدعية والتصرفات الفردية والجماعية، التي قد يُختار لها موعد مُحدد سنوي أو قد يُعتمد في القيام بها على الارتجالية، تتعلق بعضها ببعض الشخصيات التي خطَّت اسمها في تاريخ المناطق الصحراوية بأحرف مضيئة بعلمها وصلاحها؛ فكانت تُضرب لها آباط الإبل ابتغاء علمها وبَركتها، كشخصية الشيخ أحمد بن موسى بكرزاز والشيخ عبد الكريم المغيلي في توات والشيخ سيد المجدوب في العين الصفراء... الذين تقام أثناء المناسبات الاحتفالية التي تخصص لهم كثيرٌ من الممارسات الشعبية التي ترتبط ارتباطاً شديداً بالصحراء؛ برمالها وجوّها الجاف والحار، بنباتها وحيواناتها التي سافرت مع الإنسان الصحراوي في رحلتي الزمان والمكان...**

وقد اهتم كثير من علماء الغرب بمثل هذه الجوانب؛ وضُمِّنت تحت إطار مدرستين تسمى الأولى ب" المدرسة (النظرية) التاريخية الجغرافية" والثانية ب" المدرسة ( النظرية) الأنثروبولوجية"، وترجع الجهود الأولى في نطاق المدرسة التاريخية إلى جهود العلماء الألمان والروس بنفس القدر، ففي ألمانيا جذب هذا المنهج – الذي يسميه ريتشارد دورسون "إعادة البناء التاريخي" **historical reconstuctional approach** – الأخوين جريم **Grimm**.

أما النظرية الثانية فمؤسسها هو الباحث الإنجليزي تيلور **Taylor** وتابَعه الباحث الإنجليزي أندرولانج **A . Lang**.

نشَرَ تيلور في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر كتاباً بعنوان " دراسات في تاريخ البشرية القديم"، ويُشير عنوانه إلى أن تيلور كان مهتماً بالمراحل الأولية لتطور الثقافة الإنسانية، وفي عام **1871** نشر تيلور كتابه المشهور " الثقافة البدائية ".

تُقسَّم الجزائر إلى أقاليم إدارية تُسمَّى كل واحدة منها "ولاية" وعدد هذه الولايات **48** ولاية. وتدخل تحت تسمية "الصحراء الجزائرية" أو "الجنوب الجزائري" مجموعة من هذه الولايات هي: بِسكرة، المسيلة، وادي سوف، ورقلة، إليزي، تمنراست، وهي واقعة في الجنوب الشرقي، أما الجلفة، الأغواط، غرداية، فهي تقع في الوسط، والبيض، النعامة، بشار، أدرار وتيندوف؛ فهي في الجهة الغربية. وتشكل الصحراء في الجزائر ما نِسبته **80%** من المساحة العامة للدولة، تختلف هذه الولايات من حيث المساحة والطابع الجغرافي والمناخ الذي يتميز بالبرودة شتاء والحرارة والجفاف صيفاً؛ مع وجود زوابع رملية في بعض فصول السنة (شهر مارس وأفريل). تتثاقف هذه الولايات مع الولايات الأخرى المجاورة لها، أو مع أقاليم الدول المجاورة . بالنسبة للمدن الحدودية . مثل تونس وليبيا في الجهة الشرقية؛ ومالي والنيجر في الجهة الجنوبية؛ وموريتانيا والمغرب في الناحية الغربية.

وقد مرَّت على هذه الولايات (المناطق)[1] كثير من الحضارات جعلت الثقافة الشعبية فيها متنوعة ومتعددة متظاهرها، ولأننا سوف لن نستطيع – بأي حال من الأحوال الوقوف عند جميع مظاهر الثقافة الشعبية في مناطق الصحراء الجزائرية، فإننا سنقتصر على بعضٍ من الإشارات بما تزخر به من تنوع ثقافي.

تُعتبر المناطق الصحراوية في مختلف أنحاء العالم من المناطق التي لم تحظ بالاهتمام الكبير من طرف الباحثين والدارسين، لاكتشاف ما تحتوي عليه من كنوز ثقافية متميزة؛ تميزها عن باقي المناطق الأخرى خاصة الشمالية التي غالباً ما تكون بعض مظاهر المَدَنية هي المُشَكِّلة لصُورتها العامة.

ويُمكن أن نجد في هذه المناطق الصحراوية جميع العناصر المكونة لـ " الثقافة الشعبية " أو " ثقافة الشعب" ، والمتمثلة في تلك الجوانب التي تُشكِّلُ ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلدٍ أو منطقةٍ جغرافيةٍ محدودةٍ، والمعروف أن هذه الثقافة تنتج من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع، إضافة لحاجاته ورغباته التي تُشكل الحياة اليومية للقطاع الغالب من المجتمع، هذه الثقافة تتضمن أي من الممارسات وعادات الطبخ والمأكولات، والثياب والإعلام، ونواحي التسلية المستخدمة، إضافة للرياضة والأدب والطب والعمران، واللهجات والفنون...

وغالباً ما يستخدم مصطلح " ثقافة شعبية" كمصطلح مضاد أومخالف لـ"الثقافة العليا " أو النخبوية"...

وإذا كانت الثقافة الشعبية هي كل تلك العناصر وأكثر فإن المناطق الصحراوية بالجنوب الجزائري –كعيّنة من الامتداد الصحراوي –، ما تزال تزخر بكثير منها والتي وصل بعضها إلى العالمية؛ كبعض الفنون الشعبية وبعض المعالم الأثرية العمرانية التي صُنِّفت ضمن التراث العالمي، والتي أصبحت قبلةً لعديد الزائرين الذين أُعجبوا بها، ومن تلك الفنون التعبيرية الشعبية نجد "السَّبَيْبَا" كنوعٍ من الاحتفالات الشعبية في منطقة الأهقار في الجنوب الشرقي من الجزائر؛ وكذا موسيقى "آهَلِّيلْ" بمنطقة تيميمون في إقليم قورارة؛ جنوب غرب الجزائر، وقصور وادي ميزاب العريقة في ولاية غرداية، وغيرها، وهناك بعض المظاهر الشعبية التي ما تزال تنتظر من يُعرِّفُ بها ويوصلها من المحلية إلى العالمية؛ على غرار "الفَقَاقِير"؛ وهي عبارة عن طرق تقليدية تُستعمل في الري والسقي الفلاحي بمنطقة "تَوَاتْ" والتي أُعجب بها مثلاً الفرنسي كاميل ساباتيير (CamilleSabatier)، وبعض مظاهر التعاون الشعبي المسمى محليا بـ "تْوِيزَه"؛ وبعض التراث الشعبي الشفهي المروي؛ الذي ما يزال أغلبه محفوظاً في صدور الحُفَّاظ؛ ولم يُدوَّن بعدُ؛ مما يجعله عرضة للضياع والنسيان؛ وكذا عديد المخطوطات والكتب والكنانيش التي تنتظر التعريف بها من خلال فهرستها وتحقيقها ودراستها ثم طباعتها...

ونشير إلى أن المجتمعات الصحراوية في الجنوب الجزائري – كغيرها من المجتمعات الصحراوية الأخرى – في اعتقادنا – ما تزال متمسكة بكثير من مظاهر ثقافتها الشعبية، مما جعلها تُشكل لنفسها حاجزاً منيعاً تُحافظ به على خصوصياتها السوسيوثقافية؛ خاصة في ظل العولمة التي من بين أهدافها القضاء على تلك الخصوصيات...

وستهتم هذه المداخلة بالكشف عن العناصر التالية المرتبطة بالثقافة الشعبية في مناطق الصحراء الجزائرية:

البناء والعمران (القصور، القصبات القلاع، الأضرحة...) – اللباس التقليدي – الأهازيج والرقصات الشعبية – الاحتفالات الشعبية – طرق الزراعة والفلاحة (أساليب السقي في منطقتي

غرداية وتوات) – الطبخ التقليدي – الطب الشعبي – الألعاب التقليدية – الصناعات التقليدية...

أما البناء والعمران فإن ما يُميز الكثير من المباني التقليدية هو أنها تُبنى من مواد محلية كالطين واللَّبن، وتُسقف بجذوع النخيل وسعفها أو ما يُسمى محلياً بـ" الجُّريد" وأيضاً أغصان النخيل " الكرناف"، وتُراعى في هذا المنزل شُروط التهوية عن طريق كُوة في السقف والسلالم التي تقابل عادة مدخل البيت، كما تُراعى فيها أيضاً الشروط الأساسية التي تجعل المنزل دائماً محافظاً على حرارته، ومنه توفير الدفء في الشتاء والجو المُنعش في فصل الصيف، وتكونعادة في مدخل البيت غُرفة خاصة بالضيوف، وتُوفر لهم فيها كل شروط الراحة، لأن أهل الصحراء أهل ضيافة وكرمٍ وجودٍ.

وتتشكل هذه المنازل عادة في تكتل أو بناء مشتركٍ يُعرف بـ"القَصبة" أو "القصَرْ"، يتوسطه أو يعلوه المسجد، وتوجد بداخله أزقة أو دُروب، يُحيط بالقصر سورٌ كبير يحتوي على أبراج وله مَدخلٌ واحد، ويُحيط بهذا السور خَنْدَقٌ. وكل هذه الاحتياطات لدفع الغارات؛ والتصدي للهجمات التي كانت تتعرض لها هذه القصور في فترات سابقة.

ولعل من هذه القصور في الجنوب الجزائري قصور بوسمغون وتيوت في منطقة البيض، وأيضاً القنادسة وموغل في منطقة الساورة (ولاية بشار)، وكذا قصر تمنطيط وتماسخت وتاخفيفت وتازولت بمنطقة توات (ولاية أدرار)، وقصر تماسين بولاية ورقلة، وقصبة باجودة بعين صالح، وقصور غرداية (بُنورة – بني يزجن – مليكة – العطف – بريان – القرارة...)، وأيضاً قصر تمرنة القديمة بمنطقة وادي ريغ (ولاية وادي سوف) والذي تعود نشأته إلى فترة الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا، وقد بُني هذا القصر في مكان مُرتفع؛ تُحيط به غابات النخيل والأشجار المثمرة من جميع الجهات، ولعل من خصائص هذا القصر هو أنه شُيِّد على رَبوة يُحيط به سورٌ وخندقٌ، وقد سكنته قبائل الرواغة؛ وهم العنصر البربري الأمازيغي الذين سُمّيت باسمهم المنطقة (وادي ريغ)، ويعود أصلهم إلى قبيلة ريغة وسنجاس الزناتيتان، ويحتوي القصر على مجموعة من الشوارع الرئيسية والثانوية[2] أوما تُعرف بـ" سَكَّه نافده".

وأيضاً من المعالم المعمارية والأثرية بالصحراء الجزائرية؛ والتي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالثقافة الشعبية الصحراوية، والتي نُسجت حولها كثير من الأساطير نجد بعض القبور والأضرحة من بينها ضريح الملكة تينهينان بمنطقة "أَبْلَسَّه" بمنطقة الأهقار (ولاية تمنراست) في الجنوب الشرقي من الجزائر، وقد عُرف عن هذه الملكة حكمتها، و"تِينْهِينَانْ" إسم مركب من جزأين "تِينْ" و"هِينَانْ" وهي لفظة من لهجة التماهاك القديمة وتعني باللغة العربية "ناصبة الخيام".

لذلك رجح المؤرخون أن تكون كثيرة السفر والترحال ونشير الى أن الطوارق مازالوا

**يحفظون صفاتها في ترحالهم وتجوالهم. وتعتبر "تينهينان" مدرسة في الفكر السياسي وحب الوطن، وهي جزائرية النموذج الذي يحاكي الجزائريات اللآتي كن منذ زمن بعيد ملكات في أرضهن يحكمن ويشاركن الرجل في الحكم بحب واحترام وتعاون متبادل في أقصى حالات الفكر الديمقراطي. السيدة "تينهينان" كانت ملكة قبائل الطوارق حكمت في القرن الخامس الميلادي وإليها يُسند الطوارق في تنظيمهم الاجتماعي الذي يستمد السلطة حتى الآن من حكم هذه المرأة نظرا لإمكاناتها وقدراتها الخارقة نصَّبها سكان الأهقار ملكة عليهم. تينهينان ملكة متفردة كانت ذات جمال وصاحبة حكمة ودهاء فالأساطير والآثار تثبت أنها كانت امرأة تدافع عن أرضها وشعبها ضد الغزاة من قبائل ا لنيجر وموريتانيا الحالية وتشاد.**

**ويُعتبر قبرها من بين أهم المعالم والآثار في الجنوب الجزائري، وهو متميز في بنائه الدائري المبني من الحجارة.**

**أما إذا تحدثنا عن اللباس التقليدي في الصحراء الجزائري فهو يختلف من منطقة إلى أخرى ومن مناسبة إلى أخرى، إذ ترتدي النسوة في الأهقار ما يُسمى ب"تِيسَغْنَسْ"، وهو عبارة عن رداء من قماش خاص؛ لونه بَرَّاق؛ يكون عادة أسود اللون، يُسمَّى في بعض المناطق الأخرى من الجزائر ب "الحَايَكْ"، أما الرجال فيرتدون ما يُسمَّى محلياً ب"البَازَارْ"؛ وهي عبارة عن عباءة فضفاضة مفتوحة من الجانبين، ويرتدون عمامة تغطي الرأس ويتنقبون حيث لا تظهر من وجوههم إلا عيونهم، والأمر نفسه يُمكن أن نجده عند سكان منطقة تيندوف المتأثرين باللباس التقليدي الموجود في موريتانيا والصحراء الغربية، أما في باقي مناطق الجنوب الغربي فيرتدي سكانها من الرجال – في الغالب – عباءة بيضاء اللون، وهو اللون الذي يتناسب مع حرارة الجو، أما النساء فيرتدين ما يُسمَّى ب" الإزار" ألوانه متعددة أغلبها فاتحة اللون؛ لتتناسب مع الطبيعة الصحراوية، ويرتدي سُكَّان منطقة وادي ريغ من الرجال عباءة قصيرة في طولها وعمامة، ويبدو التأثر واضحاً عندهم باللباس التونسي؛ نظراً للتقارب الجغرافي الموجود بينهما.**

**ويتنوع الرقص الشعبي في مناطق الجنوب الجزائري من منطقة إلى أخرى، وهذا الرقص الشعبي الذي هو تعابير جسدية يحمل عديد الرموز والإشارات التي تُعتبر خزاناً لكثير من المشاعر والعواطف التي ترتبط بحياة الشعب وثقافتهم، وهي تعبير صادق عن آمالهم وآلامهم ونظرتهم للحياة، ويعبر الرقص الشعبي وأيضاً الزي الشعبي عدة وظائف يُمكن أن يكتشفها المنهج الوظيفي مثلما أشار إليه ريتشارد دورسون في كتابه "نظريات الفولكلور المعاصرة"(3).**

**ومن الرقصات المعروفة في الصحراء الجزائرية رقصة "الضّْفَايَرْ" في منطقة تندوف و"هُوبي" في منطقة بشار، و"البارود" و"يَشُّو" بمنطقة توات، و"الطّْبَل" بمنطقتي تيديكلت بضواحي عين صالح وأيضاً بمنطقة البيض، وهناك رقصة " السَّبيبة" بمنطقة الأهقار ( تمنراست وإليزي)...**

والسَّبيبه هي: احتفال سكان مدينة «جانت» بولاية إيليزي بالعيد السنوي التقليدي لـ «السبيبه» الذي يعد من أهم المناسبات المحلية العريقة التي لا زال يحتفل بها توارق الصحراء بالجنوب الجزائري، ويصادف الاحتفال بهذا العيد يوم العاشر من محرم "عاشوراء" في التقويم الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة التقليدية إلى ذلك اليوم الذي تعاقدت فيها قبيلتان من «التوارق» على الصلح، وعادة ما تعبر هذه المناسبة التقليدية عند سكان «جانت» عن اليوم الذي أشيع فيه السلم بين سكان القصرين العتيقين ››أزلواز» و«الميهان»، حيث لا زال هذا الحدث التاريخي راسخا في العادات المحلية ويعبر عنه اليوم بطريقة احتفالية ضمن طقوس شعبية تحمل كثيراً من الرمزية. هذا النصر الأسطوري الذي لا زال يرمز إلى صلابة المجتمع التارقي تعكسه مشاهد تلك الرقصات الجماعية التي يؤديها الراقصون أو «المحاربون» في احتفالات عيد «السبيبة» على وقع دقات الطبول، وهي تعبر عن جانب من العواطف المشحونة التي تختزل جانبا من الصراع الذي كان سائدا في عهود غابرة بين قبائل «الطاسيلي ناجر»، وترمز أيضا إلى وحدة هذه القبائل أثناء مواجهتها للأعداء. ومثلما تقتضيه العادات المتوارثة في أوساط «توارق» منطقة «الهقار» بتامنراست التي يلتف فيها السكان حول أمين العقال الذي يعتبر رمزا روحيا لزيارة مقام «مولاي عبد الرحمان»، فإن عيد «السبيبة» لدى «طوارق جانت» تعبر أيضا عن ذلك التلاحم الاجتماعي بين القبائل المحلية من أجل الاحتفال سنويا بعقد الصلح الذي أبرم ذات يوم بين قبيلتي «أورارم» و«تارأورفيت»، والذي يجسد نهاية لمسار حروب طاحنة امتدت وقائعها لتاريخ طويل بين قبائل منطقة الطاسيلي وما يرمز إليه هذا الحدث أيضا من تكريس قيم السلم والتصالح. ومن بين الصور التي ترويها الرقصات الجماعية التي يحمل فيها الراقصون أسلحة ويرتدون زيا حربيا تلك الحركات المتناسقة التي تتناغم مع أصوات «البندير»، وهي تعبر عن حركة المقاتل أثناء الحرب وتروي كثيراً من أسرار المقاتل الحربي في عهود قديمة وتقنيات الدفاع التي كانت معروفة آنذاك، ولكن يعاد تصويرها اليوم في عيد «السبيبة» بلمسة فولكلورية ممزوجة بالإيحائية وعفوية الرجل التارقي. ويشارك الجميع في الاحتفال بنهاية النزاع بين القبيلتين وينعمون في أجواء مليئة بمشاعر التسامح والصلح.

أما الاحتفالات الشعبية والتي تُعتبر جزءاً مهماً من الثقافة الشعبية للمجتمعات لما تتضمنه من احتفاء بالمعتقد والتاريخ الشعبي وتخليد بعض من العادات والتقاليد والأعراف الشعبية، وتنتشر هذه الاحتفالات بالجنوب الجزائري، وهي تُسمَّى أحياناً محلياً بـ"الزِّياره" أو "الوَعْده"، خصوصاً إذا كانت مثل تلك التي تُقام تخليداً لمناقب بعض الأولياء الصالحين مثل زيارة الشيخ عبد المالك الرقاني التي تُقام في الفاتح من شهر ماي من كل سنة وذلك بقصر زاوية الرقاني في منطقة توات (ولاية أدرار)، وأيضاً الاحتال بمناسبة المولد النبوي الشريف ببني عباس منطقة

الساورة (ولاية بشار)، وأيضاً وعدة سيد الشيخ أو ركب سيد الشيخ[4] التي تتم في منطقة الأبيض سيد الشيخ (ولاية البيض) ويمكننا القول إن مفهوم الركب تأسس بوفاة الأب الروحي والديني سيدي الشيخ بنواحي الكراكدة، ونتيجة الوصية التي أعدها بعد شعوره بقروب الأجل بسبب الجراح التي أصابته وهو يحارب الأسبان في شواطئ وهران. فاضطر سكان استيتن والكراكدة إلى نقل جثمانه الطاهرة إلى الأبيض تلبية لطلبه في موكب جنائزي سمي "الركب". فأصبح هؤلاء السكان مجبرون لإحياء ذكرى وفاة الشيخ سنويا تكريما وتخليدا لروحه الطاهر.

وقد أسَّسَ الشيخ سيدي أبو عبد الله عبد القادر بن محمد المعروف "بسيدي الشيخ" رضي الله عنه، طريقة صوفية سُميت باسمه: شيخية أو بوشيخية، وذلك في القرن العاشر الهجري فالطريقة الشيخية هي طريقة إسلامية سنية صوفية، تحث على طاعة الله عز وجل والالتزام بالسنة المطهرة، وهي طريق قويم وصراط مستقيم تهدي إلى السبيل والهدى، جامعة بين الشريعة والحقيقة لأنها شيخية المشرب شاذلية المرجع محمدية الأصل والمنبع. "بسندها المتصل إلى الإمام سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، ثم منه إلى سيد الوجود النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذه الطريقة الشيخية مهمة نبيلة، وعملٌ شريف يتمثل في تحفيظ كتاب الله تعالى، وتعليم أصول الدين وعلومه على ضوء العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني المغاربي الأصيل، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والمحافظة على الطهارة وصلاة الجماعة إن أمكن، وذكر الله مع الفقراء، والنصح لكل مسلم، كما تقوم كذلك بمحاربة البدع والانحرافات والشعوذة، والدعاوي الباطلة بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن.

وقد تعلَّقت الأوساط الشعبية بمنطقة البيض بهذه الطريقة الصوفية، ورسمت المخيلة الشعبية كثيراً من الصور المشرقة حول شخصية سيدي الشيخ، ورويت أيضاً حوله كثير من الكرامات والقصص التي دخلت في الذاكرة الشعبية لسكان المنطقة.

أما بالنسبة للزراعة فيمكننا أن نعتبرها رافداً كبيراً للثقافة الشعبية بالمناطق الصحراوية في الجنوب الجزائري، بداية من أسماء الشهور الفلاحية أو المواسم التي منها "غُشَّت" و"دُجانبير" و"اشتنبر" و"تَوْبَرْ" و"النَّايَرْ"، وقد تُضرب بعض الأمثال الشعبية لتحديد المحاصيل التي تُجنى وتزرع في هذه المواسم، فيقال مثلاً: "النَّايَرْ بُو لَكْبَايَرْ انْتَفْ اللَّفتْ واحرتْ لبْحايَرْ" ففي هذا الموسم "النَّايَرْ" يتم جني (نَتْفُ) اللَّفت (الفجل)، وتُزرع "لبْحاير" مثل البطيخ الأحمر وغيرها.

وتتميز مناطق الجنوب في مجال الزراعة والفلاحة بما تُسمَّى "تْويزه" وهذه الكلمة أمازيغية تعني التعاون والتكاتف، حيث تحتاج كثير من الأعمال إلى تعاون الأفراد للقيام بها كحفر الآبار وإزاحة الرمال عن الأراضي الزراعية بوضع حاجز من سعف النخيل يُسمى "آفْراقْ" وغيرها من الأعمال الأخرى، خاصة أن البيئة الصحراوية تتميز بقساوة الجو كما ذكرنا من قبل، فلذلك تُعتبر

" تويزة" مظهراً من مظاهر التعاون الاجتماعي الذي يتميز به أهل الجنوب تميزاً كبيراً، وبعد انتهاء تلك الأشغال الشاقة التي قد تكون مرفوقة ببعض الأغاني والإيقاعات الشعبية للحث على العمل وشد الهمم أكثر؛ بعد انتهاء الأشغال عادة تُقام وليمة على شرف المشاركين في العملية.

ولعل من مظاهر الثقافة الشعبية في الجنوب الجزائري خاصة في منطقتي توات ووادي ميزاب هو نظام السقي التقليدي للمياه الجوفية، والتي وُضعت لها آبار أرضية تُسمى بـ"الفَقَاقِيرْ" مُفردها "فُقارة" بتفخيم "القاف"، وتعد "الفُقَّارَة" أقدم مصدر مائي للسقي بالمنطقة، وهي عبارة عن سلسلة من الآبار تُحفر عموديا في الأرض، للوصول إلى المياه الجوفية، والبعد بين هذه الآبار يختلف باختلاف مناطق الفقاقير، ونفس الشأن بالنسبة لعمق البئر. ترتبط الآبار مع بعضها البعض في الأسفل (العُمق) بواسطة أنفاق وأخاديد تسمى محليا بـ (آنْفَاذْ)، تُشق لتوصيل المياه فيما بينها، مع وجود انحدار بسيط يسمح بحركة الماء وتدفقه عبر الأنفاق، يتم استقبال هذا الماء عند المخرج بواسطة ساقية تسمى (آغِيسْرُو أو آغُوسْرُو)، وتوجه المياه بعدها إلى الموزع المسمى بـ (القَسْرِيَّةُ)، ليتم تقسيمها عبر نظام دقيق باستعمال وحدة أساسية دقيقة تدعى (الحَبَّه)...

ويتم في مجال الفلاحة بالجنوب الاحتفاء بالمعتقد حيث تقال بعض الأدعية والأقوال المأثورة أثناء عملية الحرث أو الغرس كقولهم عند الغرس "الله يَجْعَلْهَا ارزقنا وارزق المُسلمين"، وهو دعاء يرغب صاحبه أن يكون ما يزرعه من الرزق المكتوب له، وأيضاً قد ينال نصيب منه غيره.

وتشتهر مناطق الجنوب بالتمور التي تعددت أنواعها منها: تِنَّقُّورْ، تَقَرْبُوشْ، تِنَّاصَرْ، آنْدَكْلِي، لَعْضَمْ، بَانَخْلُوفْ ، حَمْدِي حَمُّو، المَسْعُودِي، آنَعْلُوفْ، آغَمُّو، آحَرْطَانْ، تِلَّمْسُو، تِنْدَكْلِي، تَزَرْزَايْ، اتْقَازَّا، آقَلُّو وغيرها، ولعل أشهر هذه الأنواع هي "الدَّقْلَه" التي ذاع صيتها عالمياً، والتي اشتهرت بها خصوصاً منطقة بسكرة، وهناك ممارسات شعبية خاصة بالنخلة خصوصاً عملية التلقيح، التي تستعمل بلقاح النخلة الذكر وهو المسى بـ: طلع النخيل، والملقب محلياً بـ "الذُّكَّار"، وتتم عملية النقل هذه بترداد مجموعة من الأغاني الشعبية؛ ترتبط أغلبها بالجانب الديني، والدعاء بحصول البركة.

أما بخصوص المأكولات الشعبية التي ترتبط هي أيضاً بالثقافة الشعبية للصحراء الجزائرية، فهي عموماً تتميز بالبساطة، وهي مصنوعة من المنتجات المحلية من حبوب وخضر، فهناك مثلاً بمنطقة تيندوف مجموعة من المأكولات الشعبية منها: "البَلْغْمَانْ" أو "الْعَصِيدَه"، يصنع من الشعير بعد أن يُطحن بالطّاحونة الحجرية التقليدية إلى دقيق، يدعى

دقيق المقلي، ويضاف إلى البلغمان الدهن الحر، ويفضّل أن يكون دهن الغنم، ويعتبر البلغمان الأكلة الأكثر شيوعا لاسيما شتاءً.

وبعد تناوله يتم تحضير "الكَنْدَرَه"، وهي على شاكلة الشاي لكنها بالحليب وتُطهى على الجمر، ويأتي الطاجين في المرتبة الثانية ضمن أطباق الفئات ميسورة الحال، وهو يتكوّن من لحم الإبل وأحيانا الكبد، ويعرف هدا الطبق بـ "بنافة"، إضافة إلى خبز الملّة التي تدفن في التراب الساخن ويتمّ دهنها بالسمن الطبيعي المعروف باسم "الدهان"٠

أما بالنّسبة لكبار السن والمرضى والعجزة، فإنّ الأكلة المفضلة لديهم فهي أكلة "التشطّار"، وهو اللحم اليابس المرفوس بدهن الماعز، ويعتبر دواء تقليديا للشيخوخة، ونذكر أيضا "لقلية" وهي الشعير المسخن والمغلي يتم أكلها مباشرة، ويقال أنها تنفع لمرض المعدة. وأصبحت أكلة "لقلية" تتصدّر موائد أغلبية السكان كونها غير مكلفة من جهة، وفوائدها الطبية الكثيرة من جهة أخرى.

وأيضاً طبق "النّْشَا"، أو ما يعرف باسم الحساء أو "لَحْرِيرَه" لدى سكان المدن.

ويشكل "النّشَا" المصنوع من القمح والشعير الخالي من التوابل والحشائش غذاء رئيسيا لاسيما بالنسبة للنساء، كما يستعمل حسب إحدى النّساء المختصات في الطّبخ الشعبي لزيادة وزن الفتيات النحيفات، أي ما يسميه سكان المنطقة بـ "التبلاح"، ويتم استعمال "الوَدْكْ" أو "السَّنْمَانْ" وهو شحم الإبل. وتكثر ظاهرة "التَّبْلاَحْ" عادة عند سكان البادية الذين يفضلون المرأة السمينة عن النحيلة وتراهم ينشغلون فقط بتغذية الفتيات بالطرق التقليدية، بينما يركّز سكان المدن على الأغذية التقليدية لاسيما اللحم، حيث يفضل سكان تندوف لحم الإبل عن غيره من اللحوم الأخرى.

ويحتل لحم الدجاج مرتبة سفلى؛ وفي آخر اهتمامات السكان باعتبار أكله يسبب، حسب اعتقادهم، "اوْرَاغْ"، وهو مرض شعبي ينتج عن تناول الحلويات واللحوم البيضاء. وسيطرت الأطباق الشعبية على الموائد بتندوف، حيث أصبح أكلة "خبز" الشحمة" مكانة أساسية وغير مكلفة، إذ لا يتطلب تحضيرها سوى بعضا من الشحم والبصل والتوابل، إضافة إلى أكلة "خبز الملة" المدفونة في التراب وهي الأكلة الأكثر شعبية، حيث تقدم للضيوف لاسيما في البادية، ولا يتطلب طهيها سوى ترابا ساخنا وبعض الدقائق.

ويُحيلنا موضوع الطبخ التقليدي إلى موضوع آخر وهو الطب الشعبي، أو طُرق التداوي الشعبية، إذ ما تزال كثير من العائلات الجزائرية عموماً والصحراوية خصوصاً تلتجيء إلى استعمال بعض الأعشاب وطرق العلاج الشعبية خاصة المتعلقة بالكسور أو الرضوض وغيرها من الأمراض الأخرى، فيستعمل للكسور مثلاً ما تُسمَّى بـ"الجُّبيره"، وهي

عبارة عن عصي صغيرة وقطع من القماش تُلَفُّ بطريقة خاصة حول العضو المكسور، ويقوم بهذه العملية شخص يُسمَّى بـ"لَمْعَلَّم"، وكانت قبل سنوات قليلة تُستعمل للرضوض ما تُسمَّى بـ"الشْراطه"، وهي عبارة عن جروح صغيرة يُحدثها " لَمْعلَّم" في المكان المُصاب، ثُمَّ توضع عليها الحناء المطحونة، وتغطى بقطعة قماش إلى أن تشفى تماماً.

ويمكننا تقسيم الطب الشعبي المستعمل إلى قسمين، أولهما: "الطب الشعبي الطبيعي" كـ: الكي والتجبير الكسور واستعمال الأعشاب...، وثانيهما يسمى: "الطب الشعبي الغيبي" كـ: العلاج بالأحجبة القرآنية وزيارة أضرحة الأولياء وضرب معدن الرصاص في الماء، واستخدام البخور، وتذويب معدن الرصاص، وغيرها من الطرق العلاجية الأخرى التي ما تزال تُنافس الطب الأكاديمي، وذلك لتعلق الناس بها واعتقادهم في نجاعتها في علاج كثير من الأمراض.

ولعل من أهم الأعشاب المستعملة في العلاج نجد: الشِّيحْ لأمراض المعدة، الكَمُّونَه، الفَاتُوح، الفَاسُوخْ، الحَلْبَه، العَرْعَارْ، البَسْبَاسْ، العَرْقْسُوسْ، لازير الذي يصلح لأمراض النساء، والقرنفل لأمراض الرواتيزم و"القرطوفة" للزكام تؤخذ مع الحساء، وعصير التمر "رُوبْ" لحيوية ونشاط الجسم، وشحم سنام الجمل لمرضى الربو، وبول النوق وحليبها للمحافظة على مناعة الجسم.

ولابد أن نشير هنا إلى الدراسة القيمة التي قام بها الباحث بوغديري كمال حول: أشكال الطب الشعبي في منطقة الزيبان (بسكرة)، والتي أشار فيها إلى تعلق الأوساط الشعبية بالطب الشعبي، باعتباره علاجاً لعديد الأمراض.

وهناك جانب آخر من الروافد التي تغذي الثقافة الشعبية المحلية بالجنوب الجزائري هي الألعاب الشعبية أو التقليدية التي تنتشر عبر ربوع هذه المناطق، ويمكننا أن نتعرض إلى بعضها فيما يلي:

– التَّاشَكُّومْ: وهي لعبة كانت موجودة في منطقة توات؛ وهي شبيهة بكرة القدم الأمريكية، حيث تُحضر كرة متوسطة من ليف النخيل ويتقاذفها اللاعبون باستعمال عصي النخيل (الكرناف).

– بَاهَنْكُورْ: وتجمع باهناكير: وهي لعبة شعبية بين لاعبين يجلس كلاً منهما متربعاً وتتوسطها كومة من الحجارة المتوسطة الحجم ولكنها ثقيلة، ويحمل كل منهما بيده حصاة صغيرة يرفعها للسماء؛ وفي الوقت الذي تحلق هي في السماء يحمل حجراً من الحجارة الموضوعة أمامه؛ ويتلقف في الوقت ذاته الحصاة الصغيرة، أي أن الحصاة الصغيرة تسقط بين يده والحجرة الكبيرة، فإذا أخطأ عاد الدور للاعب الآخر، ومن يجمع أكبر عدد من الحجارة يفوز باللعبة.

**الغميضة: وهي لعبة الاختباء، وخاصة أنه فيما سبق كانت أغلب الدروب غير مُضاءة فيسهل الاختباء.**

**وهناك ألعاب أخرى مثل: (التِّيْستِيسَه، السْبَاعِيَه، لبَّانتْ...).**

**هذا في منطقة توات أما في منطقة وادي ريغ (وادي سوف)، فهناك عدة ألعاب شعبية مثل:**

**الدَّق: وهي لعبة أيضاً حيث يوضع أمام أحد اللاعبين الذي يكون جالساً على ركبتيه، ويكون خلفه مباشرة لاعب آخر يحمل بيده حجراً متوسطاً يقذف به برميلاً من البراميل المغلقة التي يباع فيها الزيت خاصة، وهكذا يبدأ في التقدم كلما تقدم هذا البرميل فإذا أخطأ، جلس هو مكان اللاعب الأول وهكذا.**

**أما الصناعات التقليدية فهي متعددة بالجنوب الجزائري وتنعكس في أشكالها وألوانها وتاريخها أهم معالم الثقافة الشعبية في صحراء الجزائر.**

**وتشتهر منطقة تمنراست وتيديكلت بصناعة الجلود مثل النعال التي أصبحت مدينة آولف ذات شهرة وطنية بهذا المنتوج؛ خاصة لدى عائلة "بُوشَنَّة" التي توارثته أباً عن جدٍّ، وتشتهر منطقة الأهقار (تمنراست) بصناعة الحلي خصوصاً المصنوعة من معدن الفضة، وتعرف منطقة بسكرة بصناعة الخيمة، التي أصبحت بعض القبائل والعروش فيها تختص بلون خاص لخيمتها عن باقي العروش الأخرى مثل اللون الأسود الذي يميز خيمة عرش "أولادْ نَايَلْ" واللون الأحمر الذي يميز خيمة عرش "بني بوسليمان" وتحديداً عائلة "بني عبد" الرزاق هناك عائلة تُسمَّى "أيَزُقاغْ"[(5)]، ذلك لأن خيمتهم التي عُرفوا بها ذات لون أحمر، وكان أهل المنطقة في الماضي يعرفون نجع هذه العائلة من خلال لونها الأحمر،فيقولون: "انْجَعْ نَاهُوزقَّاغ"، بمعنى: "نجع أصحاب الخيمة السوداء"[(6)].**

**ومن الصناعات التقليدية بالجنوب الجزائري نجد "الزَّربيَّة" أو السجاد أوالبساط التقليدي، والتي تنعكس فيها معالم الهوية الثقافية من خلال ألوانها وأشكالها والرموز المستعملة فيها، ويمكننا اعتبارها تماماً كاللوحة الزيتية التي يُعبر فيها الفنان عن مشاعره وأحاسيسه، إذ يُعبر سكان هذه المناطق – والمرأة على الخصوص – عن بعض من تفاصيل حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وكذا البيئة الجغرافية التي ينتمون إليها، مما يُمكن أن يشكل مجالاً خصباً للدراسات السيميولوجية؛ التي يُكنها – باستعمال إجراءاتها وآلياتها المختلفة – أن تكشف عن عديد الرموز الثقافية المعبرة عن الهوية في كل مجتمع من المجتمعات.**

ولعل من أشهر الزرابي المعروفة في الجنوب الجزائري نجد "زربية غرداية" التي تنسجها المرأة الغرداوية والمزابية (نسبة إلى بني مزاب) بشكل أخص، وتبوح فيها عن عن كل ما تختزنه ذاكرتها من تراكمات ثقافية، وتبثها أيضاً مشاعرها وعواطفها، خاصة أثناء غياب الزوج الذي يسافر من أجل التجارة وكسب لقمة العيش.

وتمتاز منطقة ضاية بن ضحوة بزرابيها الجميلة بأحجام مختلفة، من أهم أنواع هذه الزرابي:

زَرْبِيّة العَظْمْ: تصنع من صوف الماشية والفبران تتشكل من عدة رموز وأشكال تسمى بـ"الرَّقْمَة " متواصلة تعبر عن إبداع المرأة المذبوحية

زَرْبِيَّة النِّيلَة : تختلف في رموزها كليا عن زربية العظم بحيث ان رموزها تكون على شكل وحدات متقطعة تعبر عن مختلف الأشياء المكونة للبيئة الصحراوية يستعمل في نسيجها الصوف والفبران كذلك.

الحَنْبَل : وهو عبارة عن زربية تتشكل رموزه من عدة مستطيلات ويستعمل فيها لونين فقط وتنسج من مادتي الصوف والفبران.

الفَرَّاشِيّة: هي شبيهة في أشكالها بالحنبل ولكنها تختلف معه من حيث ألوانها العديدة تنسج بالصوف والفبران.

بالإضافة إلى صناعة الزرابي هناك نسيج "الجَلاَّبَة" و"البَرْنُوسْ" يستعمل في نسيجهما صوف الماشية ووبر الإبل.

ونقترح في الأخير ما يلي:

– تسجيل ما أمكن من مواد التراث الشعبي الأدبي؛ خاصة في الجنوب الجزائري.

– تكوين أرشيف ورقي ومسموع ومرئي.

– وضع هذا الأرشيف في متناول الباحثين والدارسين.

– تحقيق ما هو مخطوط من هذا التراث الشعبي الأدبي.

– تحليل ومقاربة هذا التراث الشعبي الأدبي باستخدام المناهج النقدية الحديثة.

– تأسيس مخابر وفرق بحث للاهتمام بهذا التراث.

– عَقد ملتقيات وندوات ومؤتمرات للتعريف به، والحديث حول مُستجدات البحث فيه.

– تشجيع الباحثين والطلبة لاختيار بحوثهم في هذا المجال.

– يجب أن تُدرج "الثقافة الشعبية ضمن البرامج التعليمية كما هو الأمر مثلاً في مملكة

**البحرين"**[7].

**– عقد مقارنات للبحث في نقاط التشابه في هذا التراث (مثل بعض الإيقاعات الشعبية بالجنوب الجزائري ودول الخليج العربي).**

## الهوامش:

[1]/ سنستعمل في بحثنا مصطلح " منطقة " بَدَل " ولاية "، لِمَا في الأول من ارتباطٍ وثيقٍ بالتراث، أما الثاني فهو مصطلح إداري محض.

[2]/ يُنظر: تالوين رفيق، التراث المعماري في وادي ريغ: قصر تمرنة القديمة نموذجاً، أشغال الملتقى الوطني الأول حول التراث الثقافي وحفظ المعالم والقطاعات المحفوظة بالوادي، من **11** إلى **14** ماي **2008**، مزوار للطباعة والنشر والتوزيع، الوادي، ط**1**، **2008**، ص: **35**.

[3]/ ريتشارد دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، تر: محمد الجوهري وحسن الشامي، دار الكتب الجامعية، د. ط، د. ط، ص: **99** وما بعدها.

أشار إلى أنه يُمكن تطبيق المنهج الوظيفي على الثقافة المادية تماماً كما يُطبق على الأدب الشفاهي، وأورد دراسةً لـ: بيتر بوجا تيريف بعنوان: " وظائف الزي الشعبي في الجزء المورافي من سلوفاكيا"...

[4]/ اسمه: عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة ،نشأ في نواحي " قصر أربوات " وهي عبارة عن واحة واقعة على الطريق المؤدي إلى البيّض في اتجاه الأبيض على بعد حوالي **23** كلم من هذه الأخيرة.

[5]/ أزَقَّاغْ بمعنى الأحمر، وأيْزَقاغْ نسبة إلى اللون الأحمر.

[6]/ سليمة دردوني، دور الخيمة كموروث ثقافي في رسم ملامح الأنا والهوية والعلاقة مع الآخر: دراسة أنثروبولوجية جنوب الأوراس والزيبان، أشغال الملتقى الثالث حول: الهوية والتراث في ظل العولمة انتماء أم انكفاء، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط**1**، **2011**، ص: **42**.

[7]/ حسين علي يحيى، بيداغوجيا الثقافة الشعبية في مناهج التعليم الثانوي بمملكة البحرين: مقاربة تربوية إثرائية، مقال بمجلة الثقافة الشعبية، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، ع/**04**، شتاء **2009**، ص: **150**.